الشيب فى الاسلام تكريم للإنسان

إن أصل كلمة الشيب هو الاختلاط، فحينما نقول إن الشعر الأسود شابه شعر أبيض فهذا يعنى إن الإنسان حينما يتقدم فى السن يبدأ شعر رأسه المتصف بالسواد يختلط شيئاً فشيء بشعر الشيخوخة المتصف بالبياض، واكتساء الرأس بهذه الحلة البيضاء الجديدة تضفى عليه مظهر البهاء والنور والوقار، وقد وفقنى ربى للتأمل يوما فى جمال الشيب فقلت:

الشيب بياض يتوج رؤوس الرجال
كما يتوج بياض الثلج رؤوس الجبال

ويعد الشيب ميزة يختص بها الإنسان عن باقى المخلوقات، وهى علامة لمفارقة سن الصبى واللهو واللعب وبلوغ سن الكبر والجد والعطاء، ومن أسماء الشيب أيضا الشمط فعن حماد عن ثابت عن أنس بن مالك «لو شئت أن أعد شمطات كن فى رأسه « أى فى رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم» فعلت رواه مسلم فى كتاب الفضائل ولذلك يسمى الرجل ابيض الرأس أشيب والمرأة المبيضة الشعر عجوز شمطاء، والشيب مذكور فى القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لقد استعمل نبى الله زكريا لفظ اشتعل وهى تعنى التوهج والضياء، وكأنه قال لله نور السموات والارض لقد مددت ربى فى عمرى حتى اشتعل رأسى نوراً وضياءاً ببركة ما وفقتنى له من بركات ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

بقلم

د. رضى الحمرانى
إخصائى فى علم النفس
الإكلينيكى، المغرب

١ـ التفسير العلمى للشيب:

إن ظهور الشيب هو عملية فزيولوجية تحدث عادة عند التقدم فى السن فحينما تعجز الخلايا الملونة عن إفراز مادة الملاتونين (Melatonine) التى تعطى للشعر اللون الأسود أو الأشقر أو الأحمر.. إلخ. عندما توقف نشاطها يفقد الشعر لونه ويصبح أبيض وفى الغالب يبدأ الشعر الابيض فى الظهور على اللحية والشارب قبل الظهور فى شعر الرأس وبدايته فى الرأس تنطلق من الشعر المجاور للأذنين والمتصل باللحية ويطلق عليها اسم الذوائب.

إن الشيب قد يظهر قبل بلوغ الإنسان مرحلة الشيخوخة لأن العوامل النفسية والوراثية لهما تأثير فى ظهور الشيب المبكر، كما تجب الاشارة إلى أن البياض المبكر للشعر يكون فى بعض الحالات مؤقتا وقد تعود الخلايا الملونة إلى نشاطها مرة أخرى خاصة بعد زوال المشاكل النفسية التى تسببت فى ظهور الشيب من مرض أو أزمات عائلية أو ضائقة مالية ليعود الشعر مجددا إلى وضعه العادى.

٢ ـ أول من شاب من أهل الدنيا:

عن سعيد بن المسيب قال: كان إبراهيم عليه السلام «أول الناس ضيف الضيف» وأول الناس اختتن، وأول الناس قص الشارب، وأول الناس رأى الشيب فقال : «حين رآه» «يارب ما هذا؟ فقال الله تبارك وتعالى: وقار يا إبراهيم، فقال يا ربى زدنى وقاراً» أخرجه الإمام مالك فى الموطأ إن هذا الحديث يحتوى على ثلاثة فوائد أولاها أن الشيب لم يكن قبل سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو أول إنسان رآه فى التاريخ، لأنه لو كان الشيب متفشيا قبله لما استنكره حين قال يارب ما هذا؟ أما الفائدة الثانية فأوردها محمد بن أحمد السفارينى فى «غداء الألباب» عن على رضى الله عنه قال: كان الرجل يبلغ الهرم ولم يشب وكان ابنه يكبر حتى يصبح مشتد الجسم مثل ابيه فلا يعرف الابن من الاب لأن كليهما شعره أسود فقال إبراهيم عليه السلام ربى اجعل لى شيء أعرف به فأصبح رأسه ولحيته أبيضين أزهرين أنورين.

أما الفائدة الثالثة من الحديث فساقها القرطبى فى تذكرته ما نصه فى الإسرائيليات أن ابراهيم عليه السلام لما رجع من تقريب ولده اسماعيل إلى ربه عز وجل رأت زوجته الفاضلة السيدة سارة فى لحيته شعرة بيضاء فكرهتها وأنكرتها عليه فلما رآها إبراهيم أعجب بها واستحسنها فلقيه ملك فقال له لقد أكرمك الله بنعمتين: أولهما أنه سبحانه وتعالى زادك هاء فى اسمك فقد كان اسمه إبرام فأصبح إبراهيم والهاء فى السريانية للتعظيم والتفخيم والتمجيد، والنعمة الثانية أنه سبحانه وتعالى وسم خليله بسمة الوقار وذلك بأن أنعم عليه بالشيب فى رأسه ولحيته فصيره الله عز وجل معظما عند أهل السماء والأرض فى اسمه وخلقته فأخبر إبراهيم عليه السلام زوجته بهذه الكرامات الربانية ومع ذلك عبرت له عن كراهيتها للشيب وهذا يوافق قول الشاعر الخليفة المستنجد بالله يوسف بن المقتفى العباسى:

عيرتنى بالشيب وهو وقار
ليتها عيرت بما هو عار
إن تكن شابت الذوائب منى
فالليالى تزينها الأقمار

٣ ـ صفة شيب النبى صلى الله عليه وسلم:

عن محمد بن سيرين قال سألت أنساً بن مالك رضى الله عنه: أخضب النبى صلى الله عليه وسلم؟ قال: لم يبلغ الشيب إلا قليلاً» رواه البخارى

ومعنى قوله اخضب أى هل صبغ شعره الابيض ويكون الخضاب إما بالحناء التى تلون الشعر باللون الأحمر أو بالكثم وهو نبات ينمو فى الصخور الصغيرة وهو على شكل خيوط لطيفة مجتناها صعب أو صبغها أصفر وفى رواية أخرى عن أنس: ما كان فى رأسه «يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم» ولحيته يوم مات ثلاثون شعرة بيضاء» أخرجه أحمد فى مسنده

وعن عثمان بن موهب قال: دخلت على أم سلمة قال: فأخرجت إلىّ شعراً من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم مخضوباً بالحناء والكثم «رواه أحمد وابن ماجة»

وقال أنس رضى الله عنه أيضا « كان أبوبكر يخضب بالحناء والكثم وكان عمر يخضب بالحناء» رواه احمد

من مجموع الأحاديث النبوية سابقة الذكر استخلص علماؤنا الأجلاء عدة فوائد أولها ثبوت الشيب للنبى صلى الله عليه وسلم وثانيها أن الشيب كان فى رأسه ولحيته الشريفتين أما الفائدة الثالثة فهى أن شيبه عليه الصلاة والسلام لم يكن كثيرا بل كان قليلا إلى درجة أن الناظر إلى وجهه المنير يستطيع عده فى وقت قصير كما أنه كان يخضب أى يصبغ شعره الأبيض بالحناء والكثم واقتدى به صحابته فى ذلك

كما أن الاحاديث تعكس عظمة اهتمام الصحابة بشأن النبى صلى الله عليه وسلم حتى أنهم اعتنوا بشيبه وعدوه عداً رغم قلة الشعرات التى شابت فى وجهه المنير.

إن الجدير بالذكر فى هذا

السياق أن الشيب ظهر فى وقت مبكر من عمر النبى صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك الحديث الذى رواه أبوبكر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال «شيبتى هود وأخواتها قبل المشيب» حيث أخرجه ابن مردويه وصححه الألبانى فى صحيح الجامع..

إن هذا الحديث يعكس حقيقتين أساسيتين، أولاهما أن نفسية الإنسان تؤثر فى مظهره الجسمى فالتفاعل الروحى للنبى صلى الله عليه وسلم مع السور الفصلة مثل هود والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت جعلت سعر رأسه ولحيته يشيبان قبل المشيب والدليل قوله «شيبتى.. قبل المشيب، أم الحقيقة الثانية فتتجسد فى كون السبب فى شيبه صلى الله عليه وسلم ليس سببا دنيويا بل سبب دينى وهو تأثره بما فى السور المذكورة من مشاهد مرعبة ليوم القيامة تفزع من هولها النفوس وتقشعر من خطبها الأبدان.

لكن إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته قد غيروا بياض الشعر بالحناء والكثم وهو أمر محمود و مستحب فإن من المكروه والمذموم شرعا نتف الشيب أو صباغته باللون الأسود وهو عمل أكد علماؤنا الأجلاء على النهى عنه لأنه ضرب من التمويه والخداع ومن الأمثلة الدالة على ذلك الرجل المسن الذى يصبغ شعر رأسه ولحيته بالاسود بغرض التزوج من الفتاة الشابة فى حين رخص طائفة من أهل العلم للمرأة صباغة شعرها باللون الأسود إذا أرادت فعلها هذا التزين لزوجها.

٤ ـ تكريم الاسلام لأهل الشيب:

عن عمر رضى الله عنهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «الشيب نور المؤمن لا يشيب رجل شيبة فى الإسلام إلا كانت له بكل شيبة حسنة ورفع بها درجة» حديث حسن أخرجه البيهقى والألبانى، وفى رواية أخرى لابن عمر «وحط عنه بها خطيئة» حديث صحيح أخرجه أبوداود فى سننه، وعن كعب بن مرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: من شاب شيبة فى الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة» حديث صحيح أخرجه الترمذى والنسائى والألبانى

إن هذه الباقة من الأحاديث النبوية تضم رحيق الفضائل التى أكرم الله بها عباده الذين اشتعلت رؤوسهم شيباً وأول هذه الفضائل أن الله تعالى إذا كان قد خص إبراهيم عليه السلام بالشيب كصفة خاصة به موجبة لتحليه بالوقار فإنه سبحانه منّ على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأن جعل «الشيب نور الاسلام» حسب الحديث أى أنه جل وعلا لم يجعله مقترنا بالفرد بل جعله مرتبطا بالدين.

وهذا لعمرى نقل لنعمة النور والوقار فى الشيب من الخصوصية إلى العمومية وهى زيادة تعظيم وتبجيل أى أن كل مسلم شاب فى الاسلام فلا يعد ذلك تشريفا له فحسب بل هو ينير بشيبته دين الاسلام فيزيد بذلك هذا الدين جمالا وعظمة فى أعين غير المسلمين

● أما الفضيلة الثانية للشيب فتتجلى فى أن كل شعرة تشيب فى الاسلام يكتب الله تعالى لصاحبها بها حسنه ويمحو عنه خطيئة ويرفعه بها درجة فهل يستطيع الشيوخ احصاء عدد الشعرات اللواتى شبن فى أجسادهم ناهيك عن حساب الحسنات المربوحة والسيئات الممحوة والدرجات المرفوعة من وراء كل شعرة من هذه الشعيرات فهذا منتهى الكرم من الله جل علاه ومنتهى التكريم لعباده المسنين.

● إما الفضيلة الثالثة للشيب وهى أعظم من كل الفضائل التى سبقتها وهى أن الشيب لا تنحصر إشراقته على دنيا المسنين فحسب بل ان الله تعالى ينور أهل الشيب يوم القيامة.

ورحيق ختام هذه الفضائل هى الفضيلة الاخلاقية فالشيب يمنع عباد الله المسنين من الغرور والخفة والطيش ويحفزهم على الطاعة والاتزان والتوبة والاقلاع عن كل ما سلف من أفعال منكرة ودعوة أنفسهم للتقليل من الشهوات المحللة لتتفرغ نفوسهم للإعداد ليوم العرض والمساءلة أمام الله جل علاه كما يربى الشيب صاحبه على التواضع لأن الإنسان كلما كثرت تجاربه وكبرت مكانته فى الحياة فقد يجره ذلك إلى احتقار واستصغار من هم اقل منه خبره أو تجربة فيأتى الشيب كدواء يقي الشيوخ من تفاحش واستفحال هذا الداء.

المراجع

١ـ محمد بن أبى بكر الرازى مختار الصحاح دار الفكر العربى بيروت لبنان ١٤١٧ هجرية ١٩٩٧ ميلادية

٢ ـ جمال الدين ابن منظور لسان العرب . دار لسان العرب . بيروت . لبنان ١٣٩٠ هجرية ١٩٧٠ ميلادية

٣ ـ د. محمد عز الدين توفيق التأصيل الاسلامى للدراسات النفسية دار السلام . الطبعة الاولى . القاهرة مصر ١٤١٨ هجرية ١٩٩٨ ميلادية

٤ ـ الشيخ محمد بن احمد السفارينى غداء الالباب لشرح منظومة الآداب . نور قرطبة الطبعة الثانية ١٤١٤ هجرية ١٩٩٣ ميلادية

٥ـ ابى سهل خالد بن رمضان حسن الشيب نور الاسلام . دار البصيرة. الإسكندرية مصر الطبعة الأولى ١٤٢٦ هجرية ٢٠٠٦ ميلادية.

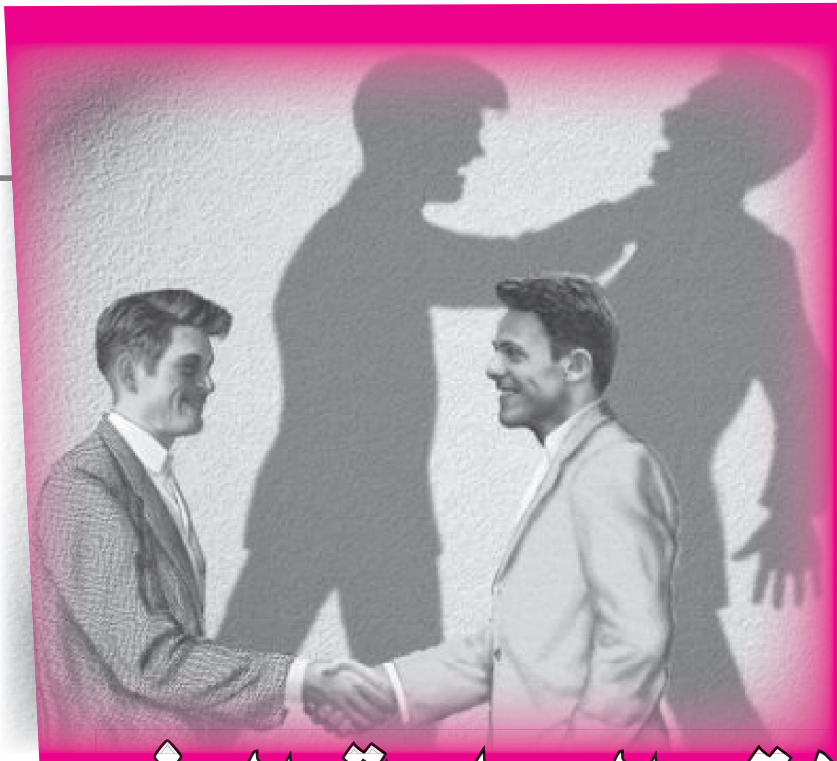

لقد جاء الإسلام من أجل ترسيخ المبادئ الإنسانية السامية والراقية، أعظم رسالة بعث بها نبينا نبى الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن تلك المبادئ والمفاهيم: : العفو والتسامح والصفح عن المسىء والصبر على الأذى واحتساب الاجر من الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم.

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»

«مايوضع فى ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»

« إن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا »

« أكثر ماتلج به أمتى الجنة تقوى الله وحسن الخلق»

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى الخلق فاستحق أن يثنى المولى الكريم على خلقه بقوله «وإنك لعلى خلق عظيم»

من مكارم الأخلاق.. السماحة والعفو

العفو تاج المكارم

إن العفو له مقام ممتاز من بين الفضائل الأخلاقية الأخرى وكذلك الصفح والصبر، ليس ذلك وحسب بل ورد السيئة بالحسنة وهو عمل ليس بوسع ومقدور أى شخص.والفرق بين العفو والصفح كبير ذلك أن العفو بمعنى التجافى عن الذنب أما الصفح هو ترك اللوم والتوبيخ الذى هو مرحلة أعلى من العفو لأنه يمكن أن يعفو الإنسان بتجاوز حالة العفو إلى الصفح والصعود إلى مرتبة أرقى منهما برد السيئة بالحسنة﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ فصلت ٣٤ وهذه أعلى الدرجات ولذلك قال عز من قائل عمن يلقاها «وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم».

وقد يعفو الإنسان ولايصفح كما قال تعالى ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾ الزخرف ٨٩

﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ الزخرف ٨٨،٨٩

والإسلام يرجح العفو على القصاص ويتحرك من موقع تفعيل الشعور بالمودة والأخوة لدى الأولياء بدلا من روح الثأر والانتقام كما قال المولى جل شأنه ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ ثم تضيف الآية ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ النور ٢٢ إن على المؤمنين أن يسلكوا طريق العفو والصفح وأن الصبر على الظلم لهو خير وأفضل درجة، ففى حين أنكم تأملون من الله الرحمة والمغفرة فكذلك عليكم أن تسلكوا هذا الطريق تجاه الآخرين، فيغفر لكم أيضا ويرحمكم، والأجمل من كل ذلك أن هناك صفحا جميلا كالهجر الجميل قال تعالى ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ الحجر ٨٥

ويثنى القرآن على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ويصفهم بأنهم المحسنون. فكظم الغيظ والعفو عن المسيىء هو قمة الإحسان إليه.. وهو تعبير عن أعلى درجات التسامى عند من يعفو ويكظم الغيظ ويتنازل عن حقه فإن فى هذه الطريقة أفضل الوسائل لحل المشاكل الاجتماعية وترسيخ روابط المودة والاحترام وتطهير النفوس من الغضب والحقد والكراهية والتوتر وحالات القلق قال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ ١٣٤.

اذهبوا فأنتم الطلقاء

ورسولنا صلى الله عليه وسلم ألفّ حول دعوته القلوب وجعل أصحابه يفدونها بأرواحهم وبأعز مايملكون بخلقه الكريم وحلمه وعفوه ولم ينتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها

فعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده ولا امرأة ولاخادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله ومانيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شئ من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى. رواه مسلم.

فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخلها نهارا بعد أن خرج منها ليلا وحطم الأصنام بيده ووقف أهل مكة يرقبون أمامه العقاب الذى سينزله بهم رسول الله جزاء ما قدموه له من إيذاء لايحتمله إلا أهل العزمات القوية إلا أنه قال لهم: ما تظنون أنى فاعل بكم، قالوا خيرا أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء.

ومما لاشك فيه أن العقاب والقصاص يورث الغضب والحقد والغل والكراهية فعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال : قيل يارسول الله، أى الناس أفضل؟ قال كل مخموم القلب صدوق اللسان قيل صدوق اللسان نعرفه فما مخموم القلب قال هو التقى النقى لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولاحسد

وعن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم مر بقوم يصطرعون فقال ما هذا قالوا فلان ما يصارع أحدا إلا صرعه وقال أفلا أدلكم على من هو أشد منه رجل لكلمة رجل فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم البطولة فى الناس ضبط النفس عن الأندفاع بعوامل الغضب وعرف الصرعة من الرجال وهو بطل المصارعة بأنه الذى يملك نفسه عند الغضب وأن ضبط النفس عن الأندفاع بعوامل الغضب بطولة لايستطيعها إلا الاشداء أقوياء الإرادة والمؤمنون فليس من السهل إذا غضب الإنسان أن يضبط نفسه ويكظم غيظه ويكف عن الانتقام ولذلك كان من دعائه صلى الله عليه وسلم، أسألك اللهم كلمة الحق فى الغضب والرضا

لمقاومة الانتقام والوقاية منه: ألا تغضب

والغضب بداية ومفتاح كل شر ولكى نقاومه لابد من ترويض النفس على ضبط النفس وكظم الغيظ وليس المطلوب منا ألا نغضب تماما لأن هناك غضباً مذموماً وغضباً ممدوحاً فالغضب المذموم هو الذى نهى عنه وذم فى الأحاديث التى وردت وهو خلق سيئ لأنه يفقد الإنسان سيطرته على الموقف بالعقل والحكمة فلا يبقى له مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار فى تصرفه ورد فعله، أما الغضب المحمود فهو أن يكون لله عز وجل عندما تنتهك حرماته وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يغضب لله عز وجل ووصف

الله تعالى المؤمنين بقوله تعالى ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح ٢٩.

والأخلاق ليست ممارسة سلوكية على المستوى الفردى والشخصى فحسب بل الأخلاق تمتد فى كل سلوك فرديا كان أو اجتماعيا دورها فى الأسرة والمجتمع والسياسة والتعامل مع الآخرين ولذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الميزان الأخلاقى للإيمان فى كلمته «لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» فعندما يرقى الإنسان الى هذا المستوى الرفيع الذى يرى فيه الآخرين كما يحب رؤية ذاته فما يحبه لنفسه يحبه لهم وما يكرهه لنفسه يكرهه لهم.. وعندما تسود هذه القاعدة الأخلاقية يتحول المجتمع الى مجتمع يسوده الحب والسلام واتذكر رد الدرداء عندما أسمعه رجل رضى الله عنه كلاما فقال: ياهذا لاتغرقن فى سبنا ودع للصلح موضعا فإنا لانكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

العفو والعقاب
الرحمة فوق العدل

إن افضل الطرق لعلاج صفة الانتقام الرذيلة والصعود إلى أوج العزة والكرامة باكتساب فضيلة العفو والصفح يكمن فى الدرجة الأولى بالتفكر السليم حول معطيات وآثار كل من هاتين الصفتين الأخلاقيتين الانتقام والعفو فعندما يرى الإنسان ما فى العفو والصفح من علو قدره وعزته وإثاره المحبة فى القلوب فى حين أن الانتقام والرد بالمثل أحيانا يؤدى إلى استمرار العداوة والحث على البغضاء والكراهية قطعا سيرجح جانب العفو والصفح والمغفرة

لأن العقوبة والقصاص تترك أثرها السلبى فى كثير من النفوس إذ من الصعب من الناحية العملية أن يرتقى الإنسان إلى مستوى الرضا بالعدل القانونى ذلك لأن القصاص واستيفاء حق عن طريق القسر القانونى وإن كان عدلا ووقاية للمجتمع من الجريمة والعدوان إلا أنه ينتهى إلى الكراهية والتربص بالآخر وطلب القصاص منه ذلك لأن الإنسان المنفذ به القانون لايرتقى إلى مستوى النضج بأنه أهل لهذا العقاب النضج الذى صورته الآية الكريمة.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ النساء ٦٥

فإن الصراع البشرى والمشاكل النفسية البشرية تتأثر بالإحسان وبالعفو أكثر مما تتأثر بالعقاب والقصاص، إلا فئة من مرضى القلوب الذين يقابلون الإحسان بالإساءة، فأولئك ليس لهم من علاج إلا قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ البقرة ١٧٩

و﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ النور ٢

ومثل هؤلاء المسيئين الذين يعفى عنهم ثم يعودون إلى الإساءة مستفيد من العفو فإن العقاب ضرورة تأديبية لهم وكف لهم عن ممارسة الجريمة والعدوان.

﴿ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ البقرة ١٠٩

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۖ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ المائدة ٩٥

ولأهمية العنصر الأخلاقى فى الإسلام فى مجال معالجة المشاكل وحلها بجانب القانون أدخل الإسلام الجانب الأخلاقى المنطلق من عقيدة الإيمان بالله وباليوم الآخر كعنصر أساسى فى معالجة المشاكل وحلها فالأخلاق متسامية على القانون فى تأثيرها العملى فى الحياة لدى الشخصية التى تبنى على أسس إيمانية وأخلاقية، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ النحل ٩٠

فإن العدل هو المساواة فى المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر والاحسان أن يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه فالدعوة فى آية العدل والإحسان مطلقة بالأمر بالإحسان إضافة إلى الأمر بالعدل

إذا كان القرآن قد ثبت مبدأ «العدل» كأساس لبناء الحياة الاجتماعية ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغى لحماية المجتمع من الفساد والظلم والجريمة والعدوان فإنه ثبت كذلك مبدأ الإحسان وهو أن يحسن الإنسان إلى من أحسن إليه كما فى قوله تعالى ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ الرحمن ٦٠

إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه

ويركز القرآن الاهتمام بموضوع العفو عن المسىء والمعتدى حتى ولو كانت الإساءة بمستوى قتل حمزة رحمه الله بن عبد المطلب نأخذ لذلك مثلا خطاب الله سبحانه لنبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم عندما توعد المجرمين من قتلة عمه حمزة رضى الله عنه فى معركة أحد وقرر أن يعاقبهم ويمثل بهم كما قتلوا حمزة ومثلوا به... خاطبه سبحانه بقوله:﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ النحل ١٢٦-١٢٨ أن يعفو المقتدر عن مجرمين قتلة قتلوا أعز الناس عليه وأكثرهم أهمية فى مسيرة دعوته فالذين دعا القرآن الى معاقبتهم بالمثل فى هذا الموقف تجلت عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تجلت عظمة الشريعة وفضل العفو عنهم أعداء الرسالة ومن الذين كفروا بها وحاربوها بل ونزلت الآيات إثر جرائم قتل وقعت فى ساحة الحرب ضد الرسالة الإسلامية والرسول صلى الله عليه وسلم فلم يستبد الانفعال ورد الفعل بل جاء التشريع وتساميها فى التشريع الصادر من الله فإن المشرع عادل وعفو وغفور.

العفو عن المقر لا عن المصِّر عفو

لقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام تشريعين العقاب والعفو!!

فالعقاب بالمثل عدل وهو حسن والعفو والتجاوز عن المسىء إحسان وهو أحسن وأفضل لأنه يسمو على الغضب وروح الانتقام فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم العفو وما أعد الله سبحانه وتعالى للصابرين يوم الحساب لسمو ذاته ورغبته فيما عند الله سبحانه وبذا حقق أسمى درجات العفو وتحول من عدالة العقاب القانونى إلى سمو الموقف الأخلاقى والروحى بالعفو والصفح ولنتذكر أن العفو عن المقِّر لا عن المصِّر عفو

حادثة الإفك وعفوا أبى بكر الصديق

قال تعالى فى سورة النور ٢٢

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يثبت القرآن للإنسان منهجا أخلاقيا يوقظ حسه ووجدانه كلما أسىء إليه ليقف بين قرارى العفو والعقاب ونعرف قيمة العفو عندما نعرف أن هذه الآية نزلت إثر حادثة الإفك المعروفة والإساءة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعن كرامته المقدسة من رأس النفاق عبد الله ابن أبى سلول وأفرد معه ويذكر المفسرون أن هؤلاء النفر وجهوا تهمة كاذبة إلى عائشة بنت أبى بكر زوج الرسول صلى الله عليه وسلم فأنزل الله براءتها وسميت تلك التهمة إفكا وعوقب الذين افتعلوها وخاضوا فيه صلى الله عليه وسلم فكان أحد الذين أشاعوا هذا الإفك هو مسطح بن أثاثة ابن خالة أبى بكر وكان فقيرا ينفق عليه أبو بكر فلما خاض فى الإفك قطع عنه النفقة وأقسم أن لايقدم له أى عون فأنزل الله هذه الآية ينهى فيها عن قطع المعروف والمساعدة المالية عن أولئك الذين أساؤوا بعد أن دعا إلى العفو والصفح عما صدر منهم ولذلك قال الحكماء العفو عن المقِّر لا عن المصِّر عفو فتراجع أبو بكر عن قراره وعاد للنفقة على مسطح ثم أتم الوحى بيانه بفقرة ذات دلالة تعبدية أخلاقية عظيمة وهى الربط بين العفو عن الناس وبين طلب العفو من الله سبحانه وتعالى أنه تذكير للإنسان الذى يسئ ثم يستغفر ويرجو العفو والمغفرة من الله سبحانه وتعالى إن القرآن يثير فى نفسه الإحساس الأخلاقى فيقول له: كما تريد العفو من الله فأعف عن الناس ...

قال تعالى ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النور ٢٢

بقلم

د. أميمة خفاجى

أستاذ مساعد الهندسة الوراثية

جامعة قناة السويس